

وداعُ رمضان و توديعُهُ :

وداعاً أسعد اللحظاتِ ولَّتْ و هذي حكايةُ الشهر الجميلِ
نفيسُ الوقتِ مثلُ البرقِ خطفاً و شمسُ الحبِّ تُسرِعُ للأفولِ
مضى رمضانُ عذراً مقلتيَّ كأزهار الخريفِ إلى الذبولِ
فهل تطوي مع العنقاءِ ذِكْراً و ذلك مُنيةُ العبدِ الذليلِ

فإذا انسلخ الشهر جلّه ، و بقي بضعة أيام ، وراح يقوض خيامه و يجمع متاعه مُزْمِعاً الرحيل ، بادر الشعراء إلى وداعه متحسرين بلهفة و حزن _ و كما استقبلوه ببشرى و فرح و ابتهاج ، قاموا يُودِّعونهُ بوجد و تأثر و بكاء ، معبرين عن ألم الفراق . يحضُّون المسلمين على اغتنام ما بقي من أيامه المباركة ، و لياليه الزاهرة في الإكثار من صنوف الطاعات ، و أعمال البرِّ و الخيرات ، معارضين و مناقضين ما نُسِبَ إلى أبي نواس _ كما مر بنا _ قوله :

(إذا العشرون من شعبان ولَّتْ) إلخ البيت ، الذي سبق في موضوع التَّهَيُّؤِ لدخول شهر رمضان.

و قد هبَّ كثيرٌ من الأدباء و الشعراء ينقضون بيتي النواسي ، و يعارضونهما ، فهذا العلامة وليُّ الدين أبو زرعة العراقي () ، يُذَكِّرُ المسلمين الصائمين بأن رمضان قد شارفت أيامه على نهايتها ، و على المؤمن مواصلة الصيام و إتباعه بالقيام ، و هجر النوم، فقد أزفت النهاية، و ليس الحينُ وقتَ النوم :

إذا العشرون من رمضان ولَّتْ فواصلُ صوم يومك بالقيام
و لا تأخذُ بحظِّك من منامٍ فقد ضاق الزمان على المنامِ

و يذكر الشاعر الشيخ علي بن إبراهيم الإبيّ اليماني () ، بأنَّ أيام العشر الأواخر من رمضان أوقات طاعة و ذِكْرٍ ، و ابتهاجٍ و تلاوةٍ و صيامٍ و قيامٍ و عمرةٍ في هذا الشهر المبارك، و طوافٍ بالبيت العتيق ، و أعمال خيرٍ و برٍ في كلِّ ساعةٍ من ساعاتِ هذه الأيام المباركة ، و في كل حين منها ، و عدم إضاعة وقتها.

فالإنسان لا يدري متى يحين فراقه للعالم :

إذا العشرون من رمضان ولَّتْ فواصلُ ذِكْرٍ ربِّك كلَّ حين
و لا تغفل عن التطواف وقتاً فأنت من الفراق على يقين

و يوَدِّعُ الشاعر (عبد القادر بن علي) () بحزن و أسى هذا الشهر الفَدَّ ، الذي لا
مثيل له ، و قد راح يَشُدُّ رحاله ، و قام مُجْبُوهُ الذين سيفقدون بمسراه معنى الزمان
الجميل ، و راحوا يُودِّعُونَهُ بسلام الله و سلامته :

خليليَّ شهرُ الصوم زُمَّتْ مطاياها و سارت وفود العاشقين بمسراه

عليك سلام الله يا شهر إننا رأيناك معنى للزمان افتقدناه

و من ذا الذي يلوم المؤمن التقي إن بكى بحرقةٍ و أسى ، على فراق هذا الشهر
المبارك ، بل ينبغي أن يُسَعِدَهُ الجميع بالبكاء حيث يفقدون في هذا الشهر جَمَعَ شمل
المسلمين في المساجد ، و هم بين مُصَلِّ خاشعٍ ، و تالٍ للقرآن متدبِّرٍ ، و لِمَ لا نبكي
على فراق شهرٍ عظيم تزهَّرُ أنواره كالأقمار . فلنأسَ على ما فرَّطنا فيه ، و لنغتنم
ما بقي :

يا لائمي في البُكا زدني به كَلْفاً و اسمع غريبَ أحاديثٍ و أشعارٍ

ما كان أحسننا و الشملُ مجتمعٌ منَّا المصلي و منا القانت القاري

و في التراويح للخيرات جامعة فيها المصابيح تزهو مثل أقمار

فابكوا على ما مضى في الشهر واغتنموا ما قد بقي فهو حقٌ عندكم جارٍ

و تخشع الروح حرقَةً ، و يذوب القلب أسى و لوعةً على رحيله ، و تفيض العيون
لوداعه حسرةً ، حتى المساجد و مآذنها تندب باكيةً لبعده ، فيا أيُّها الشهر الكريم هل
يُكتب لنا لقاءك عاماً جديداً ، و هل نسعد بعودتك الحبيبة الأثيرة ، أو قد حُمَّ القضاء؟
و هل من رجعةٍ لك نحيها ، فتمحى ذنوبنا و تزول همومنا ؟ :

الروحُ تَنَدُّبُ و الفؤاد يذوب و الدمع من ألم الجوى مسكوبٌ

تلك المساجد و المآذن تشتكي ألمَ الفراق ، و قلبها مقلوبٌ

رمضان هل من عودةٍ و زيارةٍ أو يا أُخَيَّ قد انتهى الترحيبُ ؟

هل رجعةٌ تمحي الذنوب و ينتهي داء الشقاء ، و ينفع التأنيبُ

و يندب شاعر آخر حظه مع إزماع هذا الشهر المبارك على الرحيل ، إذ إنه لم
يتزوّد من شهر الغفران بما يؤهِّله للفوز برضا الديان ، و لم يغنم من ليلاليه الفضليات
المباركات صنوف الطاعات ، فيا حسرته .. ، و سلام عليك يا شهر الفضل
و الإحسان ، فقد فاز فيك الموفق ، و غنم المسدد ، و خسر و ندم من فرَّط ، و أضع
سوانح الغفران :

ترحلّ الشهر و الهفاه وانصرما
و أصبح الغافل المسكين منكسراً
و اختصّ بالفوز و الجنات من غنما
مثلي فيا ويحه من سوء من اجترما
عساه يحصد إلا الهم و الندما
في شهره ' و بحبل الله معتصما
فسلام الله عليك أيها الشهر المبارك ' سلام عليك يا شهر الخير و البر و الأمن
و الأمان :

سلام من الرحمن كلّ أوان
سلام على شهر الصيام فإنه
على خير شهر قد مضى و زمان
أمان من الرحمن أيّ أمان
لئن فنيّت أيامك العُرُّ بغيّة
فما الحزن من قلبي عليك بفان
كأنّا فقدنا الأناج كلاً بفقده
فأعيننا نحو السماء روان
و يبلغ الحزن و التأثير منتهاه لرحيل هذا الشهر الفضيل المبارك ' و يرجو
المؤمنون بقاءه أو التريث عندهم ' و لكن هيهات :

إني أرى في المقتلتين رحيلاً
مهللاً أيأ خير الشهور فإننا
أجزعت أم كان المقام طويلاً ؟
دوماً نرى صبر الكرام جميلاً
فاغفر بعفوك يا إلهي ما مضى
و افتح لنا نحو الجنان سبيلاً
فالحسرة على فراق هذا الشهر الفضيل شديدة حري ' فحريّ بنا أن نبكي دماً على
وداع شهر لا ندري هل نسعد به في العام القابل أو لا ؟ و هل قبل عملنا أو لا ؟
يقول عبد العزيز الدريني () :

أيُّ شهرٍ قد تولّى
حُقَّ أن نبكي عليه
يا عباد الله عناً
بدماء لو عقلنا
كيف لا نبكي لشهر
مرّ بالغفلة منا
ثم لا نعلمُ أنّا
قد قبلنا أم حُرّمنا
ليت شعري من هو
المحروم والمطرود مِنّا ؟

فتفرّق بنا يا شهرنا المبارك، كما يقول الفقيه المقرئ الأديب أبو سعيد فرج بن قاسم
الغرناطي مودعاً هذا الكريم :

أزمت يا شهر الصيام رحيلاً
أجدك قد جدت بك الآن رحلة
و قاربت يا بدر التمام أفولا
رويدك أمسك للوداع قليلاً

نزلت فأزمت الرحيل
وما ذاك إلا أن أهلك قد مضوا
ووقت بها من بعدهم فعمل نادب
ولمّا أنجلي وجه الهدى فيك مسفراً
لقد كنت لماً واصلوك ببرهم
أقاموا لدين الله فيك شعائراً
دلائلُ تشریفٍ لديك كثيرة
لديك أيا شهر الهدى قصر المدى
كأنما نويت رحيلاً إذ نويت نزولاً
تفانوا فأبصرت الديار طولاً
لربيع خلا يبكي عليه خليلاً
سدلت على وجه الضلال سدولاً
حفيماً بهم بزاً لهم ووصولاً
هدتهم إلى دار السلام سبيلاً
كفى بكتاب الله فيك دليلاً
فكم لك في شأو الفضائل طولاً

و يودّع شاعر آخر هذا الشهر المبارك بدموع غزار ، و زفرات جرار كاللهيب
تخرج من القلب حرى مع الأنفاس :

صومٌ أغار عليه فطرٌ
ما أنت أول راحلٍ
كالنجم بزّ سناه فجرٌ
وُدّعت و الزفرات جمرٌ

و ينشد المبتهلون إلى الله راجين أن يقبل الله صيامهم و قيامهم ، و صالح الأعمال :

يا رفاقي ودّعوا شهر الصيام
واسألوا الله قبُولاً في الختام
بدموع جاريات كالغمام
ودوام الخير مع نيْل المرام

ويسائل شاعر طيبة الأستاذ محمد ضياء الدين الصابوني بحرقة وألم؛ هذا الشهر المبارك، فتكاد تخنقه العبرات وهو يناجيه قائلاً : لماذا ترحل أيها الشهر المبارك وتتركني نهب الأسى والتحسر لفراقك... ؟ ثم يجأ الصابوني متضرعاً إلى الله أن يجعله من عتقاء هذا الشهر المبارك :

بالله يا شهر الصيم مودّع
أتراه يرجع مثل حلم في الكرى
رمضان لا ترحل وتترك مهجتي
فاجعلنا يا رباه من عتقائه
فما لقلبك مستهام موجه ؟
أو نظرة فيه الحبيب مودّع ؟
نهب الأسى فأنيئها متقطع
يامن يجيب دعا الصريخ و يسمع

و يجأر الشعراء مع نهاية رمضان و في أيامه الأخيرة إلى الله سبحانه ؛ أن يغفر الذنوب و يتقبل الصيام و القيام ، و صالح الأعمال فيه ، فهو شهر الخير و الإحسان ، فحبذا بقاءه ، و يا ليتته لا يفارقنا .. :

رمضان شهر البرِّ ولى و انقضى أسفا عليه جامع الأحباب
رمضان شهر الخير و التقوى مضى يا شهر عُدْ دوماً على الترحاب
رمضان شهر البرِّ صار مودعاً و العيد قد وافى على الأبواب
يارب فاقبلْ صومنا و صلاتنا و اختم لنا من فضلك الوهاب

و يأسى الشاعر (اللواح) لانصرام رمضان قائلاً : وداعا أيها الشهر الحبيب المبارك ، لقد أزف رحيلك و اقترب ، فيا أسفاه ، و أنى لنا الصبر على فراقك ، و قد حُمَّ القضاء بالفراق الأليم ... ، لقد مضتْ أيامك و لياليك سراعاً كلمح البصر ، فمن ذا يلومنا إذا أسفنا لفراقك و بكينا لوداعك ؟؟ بل حقيق أن نبكي لرحيلك دماً ، و نذوب حسرة و وجداً ، فهل من عودة لنا يا شهر الصوم ، نستدرك بها ما قد فات من تقصيرنا ؟ :

وداعاً أيها الشهر الوداعا فقد أزف الرحيل و قد تداعى .
ألفنا نُسُكَكَ المحمودَ فينا و فارقناك مذ صرنا جذاعا .
و كيف لنا سُلوُك بعد بَيْنٍ و قد كنتَ الحبيبَ لنا و كُنَّا
لياليكَ الحِسانُ مضيئَ عَنَّا نحاذر مك أن تنوي الزماعا .
و فيك الليلة المقدور فيها بأيام بنا مرت سِراعاً
فليلُ القدرِ تَعْدِلُ ألف شهر جميعُ الامر ضُرّاً و انتفاعاً
فرُعياً شهرنا المحمودَ رُغياً موفقة لمجتهد أطاعا
مررت بنا مرورَ الطيف حياً فراقك بعد إلفك قد أراعا
و من ذا فيك لائِئُنا إذا ما مُحِيبِهِ و ما أهنا اجتماعا
جديرٌ أن نذوب عليك وجداً بكينا بعد فرقتك التياعا ؟
أشهرَ الصوم هل لك من رجوع و نطلق في الوداع عليك باعا
لعلَّ الله يسمح بالتلاقي فندرُك بالرجوع الارتجاعا ؟
و يسمح بالرضا العمل المضاعا

و يشارك الأندلسيُّ صاحبه (اللّوَاح) الأسي و المرارة لرحيل شهر الصوم ،
و أقول شمسه و غيابِ قمره ، و قد خبا سناه ، فما أكرمه من شهرٍ ! و ما أعزّه من
ضيف كريم ، فبالله إذ يُزِمُّ هذا الشهر العظيم على الرحيل عنا ، و يودّعنا منصرفاً
، و قد عمّت رحمات الله فيه على المسلمين كافةً إلا من أعرض و تولى ، فهل
سيتركنا ساخطاً أو راضياً ؟ :

مضى رمضان أو كأن به مضى	و غاب سناه بعد ما كان أو مضى
فيا عهدَه ما كان أكرم معهداً	و يا عصرَه اعزُّ عليّ أن انقضى
فيا لبيت شعري إذ نوى غربة النوى	أبا لسُخْطِ عنا قد تولى أم الرضا
فله من شهر كريم تعرّضت	مكارمه إلا لمن كان أعرضاً
وإن فُضيت قبل التفرق وقفة	فمُقضيها من ليلة القدر ما مضى

*

*

*

و يعجب الشاعر صالح بن علي العمري لرحيل شهر الصوم ، مع أنه نبراس
للمسلمين و هو خير شهورهم ، فيودّعه المسلمون ببيكاءٍ و حرقةٍ و حسرةٍ ، لأنه
شهر الرحمة و النور و الإشراق ، فذهابه يجرُّ على المؤمنين البأس و الأسي :

رمضان مالك تلفظ الأنفاسا	أو لم تكن في أفقنا نبراسا
اسمع وداعك في نشيج مُشيع	ولظى فراقك يُلهب الأنفاسا
قد كنت غيثاً للنفوس فأنثرت	براً وإشفاقاً وكنّ بياسا
ونسائم الأسحار تذهب بالضنى	وتهدهد الوجدان مما قاسا
وبكل سانحة مآثر سنة	من نور أحمدٍ أشرقت نبراسا
للتائبين مدامع رقرقة	تحى الفؤاد وتغسل الأرجاسا
كم في مقام الذل من تنهيدة	تجلو الصدا والران والأكداسا
والنفس ترتشف الضياء فتعتلي	وتكاد تسبح في الفضا استأناسا
أُنبتت بالتقوى شعاب قلوبنا	وسقيت بالآي الكرام غراسا
وكسوت من حل الفضائل أنفسا	فسعت إلى ربِّ الملا أجناسا
و ربا الأخوة أينعت من مؤثرٍ	أو مُنق لله أو من واسى
وتجول في رؤياك صحوة أمّة	رفعت بأنوار العقيدة راسا

وتقلدت تاج الحضارة وامتطت
 هذا هو التاريخ يشهد فافتحوا
 وتمسكوا هدي الرسالة وادحروا
 نودوا عن الهادي وأخيوا أمة
 فمعارك الأفكار أضرى شوكة
 سبحان من أسداك جلباب الهدى
 واهأ لقلبي في غروبك بعد أن
 لطفاً رويدك بالقلوب فقد سمّت
 أتغيب عن مهج تجلك بعد ما
 فلكل نفس في وداعك آهة
 نفحاتك الغناء رفد سعادة
 يا شهر كم لي فيك من إشراقة
 ومضى هلال الصائمين فحشرجت
 أستودع الله الكريم مائراً
 ولسوف تبقى ذكرياتك حية

ظهر العلا المتمنع المياسا
 سفّر الحقيقة وقرؤوا الكراسا
 دعوى الدّعي واخرسوا الأرجاسا
 تتجرع الويلات كأساً كاسا
 فقفوا على ثغر الحجا حراسا
 وكفك زاداً بالتقى ولباسا
 ألف الطريق ورافق الأكياسا
 واستأنست بجلالك استأناسا
 أحيا بك الله الكريم أناسا
 والعين تدمع و الحشاشة تاسا
 تستنزل الرحمات و الإناسا
 تطوي الظلام وتنتشر الأعراسا
 ووقفت أجترع الأسى واللباسا
 تعظّ القلوب وتطرّد الوسواسا
 الواعظاّت و إن بدون خراسا

و ثمة شاعر يعارض في وداع رمضان الأعشى في معلقته المشهورة :

ودّع هريرة إنّ الرّكب مرتحل و هل تطيق وداعاً أيها الرجل

فكيف تطيق أيها المسلم وداع شهر البشر الحبيب إلى قلوب المؤمنين ، شهر الفضائل و المكارم و الدعاء و الإجابة و المغفرة شهر فيه ليلة خير من ألف شهر . فهل يكرمنا الله سبحانه بلقائه كرّة أخرى ، أو سيحول دونه الأجل ؟ :

ودّع حبيبك شهر الصوم شهر تُقى و هل تطيق وداعاً أيها الرجل ؟

شهرُ حباه إله العرش مكرمة فيرحمُ الله من ضاقتُ به السبلُ
شهرُ تنزَّلُ أملاك السماء به من ألفِ شهرٍ وأجرٍ ماله مثلُ
شهرَ الدعاء هل الأقدار تجمعنا أو اللقاء سيأتي قبله الأجلُ ؟

فوداعاً يا حبيب قلوب المؤمنين ، و يا شهر العباداة و القنوت ، و القيام و نفحات
السحر ، و داعاً يا شهر ليالي الأنوار ، فليلك مشرق و نهارك أغرُّ مزهر :

وداعاً وداعاً حبيبَ البَشَرِ حبيب القلوب عظيم الأثرِ
وداعاً حليفَ الدُّعا و القنوت وشهر القيام و نفع السحرِ
لياليك بالنور قد أشرقتُ نهارك يزهر بوجه أغرِ
فهل نلتقي يا حليف الفلاح وهل عودةٌ أو سيأتي القدرُ
و هل رجعة لليالي الملاح فنقرأ في مُنتدك السورُ

و بتأثرٍ شديد و حزن عميق ، يودّع الشاعر عبد الرحمن بن شميطة الأهدل هذا الشهر
المبارك بأسى و حرقة ، و حزنٍ لفراق شهر الصوم الفضيل ، بقلوب باكية و عيون
مستعبرة ، فقد سالتُ دموعه و نُحِل جسمه لتأهُب سيد الشهور رمضان الخير و البر
و الضياء و الجلال و الإشراق ، على الرحيل ، فهنيئاً لمن وفقه الله فقام ليله ، و لم
يجرح صومه ، فنال مِنح الإله العظيمة و رحمته ، و حظي بالقبول ، و فاز بالعتق
من النار :

رمضانُ دمعي للفراق يسيلُ والقلب من ألم الوداع هزيلُ
رمضان إنك فاضل و مُكرَّم و ضياءُ وجهك يا عزيز جليلُ
رمضان جنّت و ليلنا متصدّع أما النهار بلهوه مشغولُ
فالتفتُ حولك سادةً ذوو همّةٍ لم يثبهم عن صومهم مخذولُ
سجدوا لبارئهم بجبهة مُخلصِ وأصاب كلاً زفرةٌ و عويلُ
قاموا الليالي و الدموع غزيرةً ويدُ السخاء يزينها التنويلُ
كم فيك من مِنح الإله و فضله و العتق فيك لمن هفا مأمولُ
وسحائب الرحمات في فلك الدُّجَا في ليلةٍ نادى بها التنزيلُ
وملائك الرحمن تحيي ليلاًها فيهم أمينُ الوحي جبرائيلُ
تلك المساجد و الدعاء مجلجُلُ لله جلّ جلاله التبجيلُ

و تسيلُ دموع شاعرٍ آخرٍ لرحيل هذا الشهر الكريم ، الذي يجمع المسلمين على طاعة ربهم ، صياماً و قياماً ، فيغنونون المنح الإلهية العظيمة ، من عفوٍ و غفرانٍ و رحمة بفضل الله و إحسانه ، في هذا الموسم الذي تحفُّ فيه ملائكة الرحمن عباده المؤمنين ، وهم في مساجدهم العامرة ، الفيّاضة بالدعاء و الابتهاج :

بكتِ القلوبُ على فراقك حُرقةً كيف العيونُ إذا رحلت ستفعلُ
ما بال شهر الصوم يمضي مسرعاً وشهورُ باقي العام كم تتمهَلُ
ها أنت تمضي يا حبيبُ وعمرنا يمضي ومن يدري أ أنت ستقبَلُ
فعساك ربي قد قبِلت صيامنا وعساك كلَّ قيامنا تتقبَلُ
يا ليلةَ القدرِ المعظمِ أجرُها هل اسمنا في الفائزين مسجَلُ
رمضانُ لا تمضِ و فينا غافلُ ما دام يرجو الله أو يتذلُّ
رمضانُ لا أدري أعمرى ينقضي في قابلِ الأيام أم نتقابلُ ؟

و يرجو الشيخ مصطفى عباس شهر رمضان المبارك ، الذي جُمِعَ الخيرُ كُلُّه فيه ، أن يترَيَّثَ قليلاً ، فلم نرو ظمأ عامنا بعدُ ، فلماذا ترحلُ سريعاً يا شهرنا الحبيب ، فنتركنا و تمضي ، بل تمهَلُ فلم يحنِ الفراقُ بعدُ :

تمهَلُ لم يحنْ بعدُ الفراقُ تمهَلُ لم يزلْ فينا اشتياقُ
تُلَوِّحُ للوداعِ يداً و أخرى تُكفِّفُ أدمعاً حرى ثراقُ
فما لك دائماً تمضي سريعاً أما بالأمسِ قد طاب العناقُ
أتركنا و تمضي يا حبيباً بأضلعنا له شدَّ الوثاقُ
تمهَلُ فيك كلُّ الخيرِ ينمو ومن نارٍ لمن صاموا انعتاقُ

و تهمني عبرات الشاعر محمد سعيد راشد الخليلي () ، لدى فراق رمضان ، وهو يودعه بما هو جدير بأكرم و دواعٍ إذ لا سلوان عنه ، و لا عوض عن فقدِه ، فهو المفضَّلُ و المكرَّمُ و المعظَّمُ و هو سيد الشهور و الأزمان :

خير الوداع لشهرنا رمضان هل بعد بينك كان من سلوان
خير الوداع عليك يا شهر الهدى لم يتبق من ذنب و لا عصيان
فعلى فراقك سال دمع عيوننا فوق الخدود كهاطلٍ هتانِ
فهو المفضَّلُ و المعظَّمُ قدره خير الشهور و سيد الأزمان

*

*

*

و يُشَّيع هذا الشهر الكريم بالتحية و السلام ، و يستودع المسلمون ربهم هذا
الشهر المبارك بقلوب واجفة ، و دموع وأكفة ، و لئن مضى هذا الشهر الكريم
و انقضت أيامه و لياليه إنَّ الحزن على فراقه دائم مقيم :

سلامٌ من الرحمن كلَّ أوانٍ على خير شهر قد مضى وزمانٍ

سلام على شهر الصيام فإنه أمانٌ من الرحمن أيَّ أمان

لئن فنيت أيامه الغرُّ بغتة فما الحزنُ في قلبي عليه بفان

فرمضان يودع ، و العمر ينقضي، و السعيد الذي يغنم أيامه ولياليه، فلا يضيعها
سدى، يقول الأستاذ الأميري:

ذهبت رؤاه و نون ختامه فانبرى للحديث عن أيامه

قالوا شهري مضى يافوز عبد لم ينم عن صومه وقيامه

و قد جمع ابن المعتز في بيتٍ واحد بين التهنئة بالعيد و الفرحة بقدوه ، و رحيل
رمضان الذي خَلَّفَ الحسرة و اللوعةَ برحيله ، فرحيله تُكَلُّ :

لئن أتى العيد من لُقياك في فرحٍ لقد مضى الصومُ من مناك في تُكُلِّ